علامات مولد

obeikandl.com

عالم

كان عالمًا متداعيًا[١] قد شارف النهاية.. خلاصة ما يقال فيه إنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام.

أي إنه فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر.. طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون إلى قوة في الغيب، تبسط العدل، وتحمي الضعف، وتجزي الظلم، وتختار الأصلح الأكمل من جميع الأمور.

وطمأنينة الظاهر التي تنشأ من الركون إلى دولةٍ تقضي بالشريعة، وتفصل بين البغاة والأبرياء، وتحرس الطريق، وتخيف العابثين بالفساد.

بيزنطة قد خرجت من الدين إلى الجدل العقيم الذي أصبح بعد ذلك علَمًا عليها، وتضاءلت سطوتها في البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمي بجوارها.

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس.. وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة[٢]، وبواعث الفتن، ونوازع الشهوات.

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة، وبين التوحيد الذي هو ضرب من عبادة الأوثانِ.. ثم هي بعد هذا التشويه في الدين، ليست بذات رسالة في الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ.. فليس لها عمل باقٍ في سجل الأعمال الباقيات.

---

(١) ساقط في الفساد.

(٢) الحقد والتربص.

عالم يتطلع إلى حال غير حاله.. عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثمَّ للبناء.

obeikandl.com

أمَّة

وبين هذه الدول المتداعيات، أمَّة ليست بذات دولة ولكنها تتأهب لإقامة دولةٍ.. هي أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها..

في أيدها تجارة العالمين كلها.

فإذا سارت القوافل من خليج فارس إلى بحر الروم، فهي تسير في البادية بين حراس من العرب لا سلطان عليهم للدول المتداعية.. أو هم قد شعروا بذلك السلطان حينًا في إبان الصولة الرومانية والصولة الفارسية، ثم علموا أنهم مالكون لزمامهم يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق، ويغضبون فتبور التجارة وينضب المورد وتكسد الأسواق.

وإذا سارت القوافل من اليمن إلى الشام أو من بحر القلزم إلى بحر الروم، فهي في جيرة الأعراب من كلتا الطريقين.

أمة تيقظت لوجودها، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها..

ثم رأت هؤلاء المحيطين يجورون عليها، ويريدون إخضاعَها وابتلاعَها..

فهرقل[١] الرومي يرسل إلى مكة من يحكمها، وأبرهة الحبشي يزحف إلى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدلُ بها كعبةً غيرها، وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها..

خطر من خارجها، يزيد الأمة يقظةً وانتباهًا لوجودِها..

وخطر من داخلها، يدفع بها دفعًا إلى الزوال أو إلى استكمال النقص المستشري في حياتها..

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع في أيديها ثروة المدينة..

حالة لا استقرار فيها..

فمن هنا الترف، والطمع، والخمر، والقمار، والمتعة، وتسخير الأقوياء للضعفاء.. ومن هنا الفاقة، والحسرة، والشك في صلاح الأمور..

ولكنه شكّ يبحث ويضطرب، وليس بالشك الذي يستجم ويستكين.. فحيثما اجتمع أناس من أولي الرأي يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير، فهناك هاتفٌ بينهم بسوءِ ما هم عليه.

اجتمع أناس بنخلة لإحياء عبد العزَّى فقال رجل منهم لإخوانه: " والله ما قومكم على شيء وإنهم لفي ضلال.. فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه يجري دم النحور. يا قوم التمسوا لكم دينًا غير هذا الدين الذي أنتم عليه ".. ثم تفرقوا، فمنهم

---

(١) لقب يلقب به ملك الروم.

من تنصَّر، ومنهم من اعتزل الأوثانَ، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الإسلام فلبَّاها.. وكان الذي تنصَّر وسمع دعوة الإسلام ورقة بن نوفل[١] الذي كتب له أن يتلقى بشارة النبي العربي عند ظهوره ويلقي إليه بالبشارة.

هؤلاء شكُّوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير..

وغيرهم شكُّوا وبحثوا عن وازع من الضمير، ووازع من السلطان. فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكونُنَّ مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقُّه. وذلك حلف الفضول الذي شهده النبي العربي في شبابه وقال فيه: **"ما أحب أن يكون لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم"**.

حالة لا تستقر، ولا تزال في طلب الاستقرار..

وأمة يقظى..

وخطر محدق بها مما حولها، ومما هو في دخائلها وأحشائها..

حالة تنذر بالزوال، وقلما تزول أمة يقظى في أوان انتباهها.. فتلك إذن حالة للتبديل والتجديد.

---

(١) ورقة بن نوفل (١٢ ق هـ = ٦١١ م) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى.

قبيلة

وقبيلة في تلك الأمة، في تلك المدينة.. لها شعبتان:

إحداهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان قائمًا على هواها.

والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القويّ الذي يجور ويطغى ويستبقى أداة الجور والطغيان، ومقام الضعيف الذي يحتمل الأذى ويصبر على الكريهة ولا يملك مع السيد الآمر إلا أن يذعن له ويأكل من فضلات يده.

بيت

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق وليس له لؤم الثروة الجامحة والكبرياء الجائحة، والقسوة على من دونه من المحرومين.

ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها العليا. وإن لم يكن معدودًا من أثرياء القبيلة القرشية في ذلك الأوان.

ورأس هذا البيت –عبد المطلب– رجل قوي الخلق قوي الإيمان فيما آمن به، حكيم مع قوة طبعه وشدة إيمانه، خليق أن ينجب العقب الذي يبشر بدعوة وينضج عن دين.

نذر لئن عاش له عشرة بنين لينحرنَّ أحدهم عند الكعبة.. ثمَّ أحلَّه قومه وأحلَّته العرَّافة من نذره، فأبى أن يتحلَّل حتى يستوثِق من رضا الرب ورضا ضميره. سألتهم العرافة: "كم الدية فيكم؟".

قالوا: " عشرة من الإبل ".

قالت: "فتقربوا إذن بعشر من الإبل واضربوا على الفتح وعليها بالقداح.. فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم" فما زالوا يزيدون حتى بلغت الإبل مائة وخرجت القداح عليها. فهتفت قريش بعبد المطلب: "لقد رضي ربك.. فأطلق فتاك". وكان خليقًا[١] بمن يريد أن يتحلل المتعللين، فأبى إلا أن يضرب عليها القداح ثلاث مرات، ثم نحرت الإبل للجياع من الأناسي والسباع.

وجاء القائد الحبشي[٢] يهدم الكعبة ويسطو على الإبل والشاه.. فلما سأل عبد المطلب أن يرد إليه إبله، قال له مقال السياسي المحرج المداور بالكلام : "أراك تسأل عن إبلك ولا تسأل عن الكعبة ".

فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن: "أما الإبل فأنا ربها، وأما البيت فله ربٌّ يحميه!".

فكان إيمانه إيمانًا كفؤًا لدهاء السياسة. ولم يكن إيمان العجز والتواكل والاستسلام..

---

(١) أي كان جديرا به أن يرجع عن وعده.

(٢) هو أبرهة الأشرم.

ومن كان له هذا الخلق، وهذا الضمير، وهذا الإيمان، وهذه الرئاسة، فليس من عجب أن ينجب نبيًّا في زمانٍ يستدعي الأنبياء، ومكان مهيأ لهم دون كل مكانٍ. بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان.

obeikandl.com

أب

وإذا كان عبد المطلب جَدًّا صالحًا لنبي كريم، فابنه عبد الله نعم الأب لذلك النبي الكريم..

لكأنما كان بُضعة من عالم الغيب، أُرسِلت إلى هذه الدنيا لتعقب فيها نبيًّا وهى لا تراه.. ثمَّ تعود.

كان إنسانًا من طينةِ الشهداء، يتجه إليه القلب الإنساني بكل ما فيه من حبٍّ وحنوٍّ ورحمةٍ. فهو الفتي الذي اسمه عبد الله والذي اختير للفداء، فجاشت له شفقةً قومه حتى تركه لهم القدر إلى حين. وهو الفتى الذي تحدثت الفتيات في الخدورِ بوسامته وحيائه، وودَّت مئات منهنَّ لو نعمن منه بنعمة الزواج. وهو الفتى الذي أقام مع عروسه ثلاثة أيام، ثمَّ سافر ليتجر فإذا هي السفرة التي لا يؤوبُ منها الذاهبون. وهو الفتى الذي ماتَ وهو غريب، وولد له نسلُه الكريم وهو دَفين. وهكذا تتمثَّل البصائر الخاشعة آباء الأنبياء والسلالة التي تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم البقاء وعالم الفناء.

رجل

عالم يتطلَّع إلى نبيٍّ.. وأمَّة تتطلع إلى نبي، ومدينة تتطلع إلى نبي، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبي.

ثمَّ ها هو رجل لا يشركه رجل آخر في صفاته ومقدِّماته، ولا يدانيه رجل آخر في مناقبه الفضلى التي هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة في المدينة.. وفى الجزيرة، وفى العالم بأسره.

نبيل عرق النسب.. وليس بالوضيع الخامل، فيصغر قدره في أمة الأنساب والأحساب..

فقير.. وليس بالغني المترف فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليَسَار[1].

يتيمٌ بين رحماء.. فليس هو بالمدلَّل الذي يقتل فيه التدليل ملكةَ الجدِّ والإرادة والاستقلالِ، وليس هو بالمهجورِ المنبوذِ الذي تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزَّة النفس وسليقة الطموح، وفضيلة العطف على الآخرين.

خبيرٌ بكلِّ ما يختبره العرب من ضروب العيش في البادية والحاضرة.. تربَّى في الصحراء وألفَ المدينة، ورعى القطعانَ واشتغل بالتجارة وشهد الحرب والأحلاف، واقترب من السراة ولم يبتعدْ من الفقراء.

---

(١) الغنى.

فهو خلاصة الكفاية العربية في خير ما تكون عليه الكفاية العربية..

وهو على صلة بالدنيا التي أحاطت بقومه.. فلا هو يجهلُها فيغفل عنها، ولا هو يغامسها كلَّ المغامسة فيغرق في لجتها.

أصلح رجل من أصلح بيت في أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة، على غير علم من الدنيا التي ترقبها.

ذلك محمد بن عبد الله عليه الصلاة السلام..

قد ظهر والمدينة[١] مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه، والجزيرة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه، والدنيا مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة؟.. وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير؟.. وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق؟.. علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة، وهى أسباب تتمهَّد لظهوره، وهي رجل يضطلع[٢] بأمانتها في أوانها..

فإذا تجمَّعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامةٍ غيرها؟.. وإذا تعذَّر عليها أن تجتمع فأي علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟

---

(١) هي مكة المكرمة.

(٢) يتحمَّل مسؤوليتها.

خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولًا مبشرًا بدين، وإلا فلأي شيء خلق؟.. ولأي عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات؟

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن، لكان تاجرًا أمينًا ناجحًا موثوقًا به في سوق التجر[1] والشُّراه.. ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها في هذا العمل مهما يتسع له المجال.

ولو اشتغل زعيمًا بين قومه لصلح للزعامة، ولكن الزعامة لا تستوفي كلَّ ما فيه من قدرة واستعداد..

فالذي أعدَّه له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها، وما من أحدٍ قد أُعِدَّ في هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمَّد قد أُعدَّ لها أكمل إعداد.

(١) التجَّار.

بشائر الرسالة

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية.. يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكِّده وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث أو ناقضته، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته، ويتفرقون في الرأي والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان[1] وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام؟

لا موضع هنا لاختلاف..

فما من بشارة قطّ من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحدٍ بالرسالة يوم صدع النبيُّ بالرسالة، أو كان ثبوت الإسلام متوقِّفًا عليها.

لأنَّ الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلادِ، لم يعرفوا يومئذٍ مغزاها ومؤدَّاها، ولا عرفوا أنها علامة على شيءٍ أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة.

ولأنَّ الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة، لم يشهدوا بشارةً واحدةً منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه.

وقد ولد مع النبي عليه الصلاة والسلام أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز للمصدِّق أن ينسبها إلى مولده جاز

---

(١) المشاهدة يقينا بالعين.

للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره. ولم تفصل الحوادث بالحقِّ بين المصدِّقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين.. يوم تأتي الدعوة بالآيات والبراهين غنيَّةً عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين.

أمَّا العلاقة التي لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها، فهي علامة الكون وعلامة التاريخ..

قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة..

وقالت حقائق التاريخ: لقد كان **محمد** هو صاحب تلك الرسالة..

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ..

* * *

obeikandl.com

عبقرية الداعي

اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة..

واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة..

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد، ولا تتفق معها الوسائل التي تؤدَّى بها رسالته على أحسن الوجوه.

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول، ثمَّ لا يظهر الرسول.

وكان من الممكن أن يظهر الرسول في البيت الصالح وفى البيئة الصالحة، ثم لا تتهيأ له الصفات التي يتمّ بها أداء الرسالة.

ولكن الذي اتفق في رسالة محمدٍ قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكان المعجزة التي تفوق المعجزات.. لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولًا سائغًا بغير عَنَت[1] ولا استكراه.

فكان محمد مستكملًا للصفات التي لا غني عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ.

كانت له فصاحة اللسان واللغة..

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة..

وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها..

---

(١) إكراه.

obeikandl.com

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول.. ولكنها هي التي عليها المدار في تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال.

obeikandl.com

الفصاحة

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام، ولهيئة النطق بالكلام، ولموضوع الكلام.. فيكون الكلام فصيحًا وهيئة النطق به غير فصيحة، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين، ثم لا تجمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب.

أما فصاحة محمد.. فقد تكاملت له في كلامه، وفى هيئة نطقه بكلامه، وفى موضوع كلامه.

فكان أعربَ[1] العرب، كما قال عليه السلام: **"أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر"**.

فله من اللسان العربي أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة.. وهذه هي فصاحة الكلام.

ولكن الرجل قد يكون عربيًّا قرشيًّا مسترضعًا في بني سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم، أو يكون صوته غير محبوب، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوسٍ.. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل.

أمَّا محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه، وخير من وصفه بذلك عائشة رضي الله عنها حيث قالت: "ما

---

(١) أفصح.

كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بَيِّن فَصل، يحفظه من جلس إليه"[١].

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها.. فهو صاحب كلامٍ سليم في منطق سليم..

ولكن الرجل قد يكون عربيًّا قرشيًّا مسترضعًا في بني سعد، ويكون سليمًا في كلامه سليمًا في نطقه.. ثم لا يقول شيئًا يستحقّ أن يستمتع إليه السامع في موضوعه.

فهذا أيضًا قد تنزَّه عنه الرسول في فصاحته السائغة من شتى نواحيها.. فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا هو دليل صادق على أنه قد أوتي حقًّا "جوامع الكلم"، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام.

(١) انظر الشمائل المحمدية للسيوطي.

obeikandl.com

الوسامة والثقة

وكانت له مع الفصاحة صباحة[١] ودماثة[٢] تحبِّبانِه إلى كل من رآه، وتجمعان إليه قلوب من عاشروه. وهى صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدوّ، ولم ينقل عن أحدٍ من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل ما بلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء.

وحسبك من حبّ الضعفاء إياه أن فتى مستعبدًا يفقد أباه وأسرته – كزيد بن حارثة – ثمَّ يظهر له أبوه بعد طول الغيبة، فيؤثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه..

وأن خادم خديجة رضي الله عنها – وتغني به مسيرة – يقدمه ليبشر سيِّده بالربح والتوفيق في تجارته، وهو أولى أن ينفس عليه، وأن يدَّعِي لنفسه ما اختصَّه به من الفضل والتقديم.

وحسبك من حبّ الأقوياء إياه أنه جمع على محبته أناسًا بينهم من التفاوت في المزاج والخصال ما بين أبى بكر وعمر وعثمان وخالد وأبي عبيدة، وهم جميعًا من عظماء الرجال.

ولكن الرجل قد يكون صبيحًا دمثًا محبوبًا، ولا يكون له من ثقة الناس وائتمانهم إيَّاه نصيب كبير.. لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به، وإذا اتفقت الخصلتان حينًا فمن الجائز أن تفترَّقا حينًا آخر؛ لأنهما في عنصر الخصال لا تتلازمان.

---

(١) جمال الوجه.

(٢) الحياء والشرف.

أما محمد فقد كان جامعًا للمحبة والثقة كأفضل ما تجتمعان، وكان مشهورًا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه. وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه. وامتلأ هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم دعوته فكان يسألهم: " أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقونني ؟ ".

فيقولون: " نعم، أنت عندنا غير متهم ".. إلا أن الإنسان ينفر مما يصدمه في مألوفاته وموروثاته، ولو صدقه وقام لديه ألف برهان عليه. فلم يكن ما بالقوم أنهم لا يصدقون محمدًا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة، وإنما كان بهم أنهم ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوؤه فيمن يحب أو فيما يحب، وهو مفتوح العينين ناظر إلى صدق ما يلقى إليه.

obeikandl.com

الإيمان والغيرة

من المحقق أن هذه الموافقات على كثرتها، وهذه الشمائل على ندرتها، لا تزال تتوقف على صفة أخرى يحتاج إليها الداعي أشد من احتياجه إلى الفصاحة والصباحة.. وهى إيمانه بدعوته وغيرته على نجاحها. فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسمات، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الايمان بصواب ما يدعو إليه، والغيرة عليه..

وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان.. وجاوره أناس أقل منه نبلًا في النفس ولطفًا في الحس ونفورًا من الرجس، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله، ومن حاجتهم إلى عبادة غير عبادة الأصنام، وآداب غير آدابهم في تلك الأيام. فإذا جاوزهم في صدق وعيه وسداد سعيه فقد وافق المعهود فيه، والموروث من جده وأبيه.

ولما آمن برسالته هو ودعوة ربه إياه إلى القيام بأداء تلك الرسالة لم تهجم على هذا الإيمان هجوم ساعة ولا هجوم يوم، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره، ولكنه تردد حتى استوثق، وجزع حتى اطمأن. وخطر له في فترة من الوحي أن الله قلاه وأعرض عنه، ولم يأذن له في دعوة الناس إلى دينه. ثم تلقى الطمأنينة من وحي ربه ومن وحي قلبه ومن وحي صحبه.. فصدع بما أُمِر، ورضي ضميره بما أوتي من الهداية على النحو الذي رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب

الفطرة الدينية، مع ما بينه وبينهم من فارق في الرتبة والأهبَّة[١]، وما بين زمانهم وزمانه من فارق في الحاجة إلى الإصلاح.

فما من عجب إذن أن يكون محمد صاحب دعوة.

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التي بلغت. وإنما العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة أو يتغافلون عنها لهوى في الأفئدة، فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصرُّوا أمس على الكفر به وحجبوا بأيديهم نوره عامدين.

(١) الاستعداد.

obeikandl.com

نجاح الدعوة

ما من حركة كبرى في التاريخ تتضح للفهم إن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهومًا بأسبابه الواضحة المستقيمة التي لا عِوَج في تأويلها، وما من شيء غير الغرض الأعوج يذهِل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة ثم يخيِّل إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولًا غير مطلوب في هذه الدنيا، وإن نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذَّات النعيم ومتعة الخمر والحور العين.

أي إرهاب وأي سيف؟..

إن الرجل حين يقاتل من حوله إنَّما يقاتلهم بالمئات والألوف.. وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرَّضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدًا لسيوفهم، وكان يلقون عنتًا ولا يصيبون أحدًا بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذًا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدًا من داره.

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفًا من النبي الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين.. ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوه ليبدأوا واحدًا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان.

obeikandi.com

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع.

أما الإغراء بلذَّات النعيم ومتعة الخمر والحور العين.. فلو كان هو باعثًا للإيمان، لكان أحرى الناس أن يستجيب إلى الدعوة المحمدية هم فسقَة المشركين وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس إلى استدامة الحياة واستبقاء النعمة. فإن حياة النعيم بعد الموت محبَّبة إلى المنعمين تحبيبها إلى المحرومين، بل لعلها أشهى إلى الأولين وأدنى.. ولعلهم أحرص عليها وأحنى، لأن الحرمان بعد التذوُّق والاستمراء أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه الحال.

* * *

لم يكن أبو لهب أزهد في اللذة من عمر..

ولم يكن السابقون إلى محمد أرغب في النعيم من المتخلفين عنه..

ولكننا ننظر إلى السابقين وننظر إلى المتخلفين، فنرى فارقًا واحدًا بينهم أظهر[١] من كل فارق. ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين[٢] وبين من يعقلون ويصغون إلى القول الحق، ومن يستكبرون ولا يصغون إلى قول.

---

(١) أشد وضوحًا.

(٢) المتكبرين.

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا.. وليس هو الفارق بين طالب لذة وزاهد فيها، أو بين مخدوع في النعيم وغير مخدوع.

ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر رضي الله عنه في إسلامه.. فقصته في ذلك نموذج لتلبية الدعوة المحمدية. ينفي كل كلام يقال عن الوعيد والإغراء وأثرهما في إقناع الأقوياء أو الضعفاء.

قال ابن إسحق: "... خرج عمر يومًا متوشحا بسيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطًا من أصحابه... وقد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء. ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصدِّيق، وعلى بن أبى طالب، في رجال من المسلمين رضي الله عنهم.. ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة. فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له، " من تريد يا عمر؟..".

فقال: " أريد محمدًا هذا الصابئَ الذي فرق أمر قريش، وسفَّه أحلامها[1]، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله ".

فقال نعيم: " والله لقد غرَّتك نفسك يا عمر!.. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا؟.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟".

قال: " وأي أهل بيتي ؟".

---

(١) عقولها.

قال: " ختنك[١] وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو! وأختك فاطمة بنت الخطاب.. فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما".

قال: "فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب في مخدع لهم أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: "ما هذه الهينمة التي سمعت ؟".

قالا له: "ما سمعت شيئًا !..".

قال: "بلى والله !.. لقد أُخْبِرت أنكما تابعتما محمدا على دينه ".. وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها، فضربها فشجَّها، فلما فعل ذلك قالت له أخته: "نعم.. قد أسلمنا وآمنَّا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك". فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: "أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون آنفًا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد". وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك قالت له أخته: "إنا نخشاك عليها".

قال: " لا تخافي " وحلف لها بآلهته ليردَّنها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: "يا أخي!.. إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر". فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها " سورة طه ". فقرأها، فلما قرأ منها صدرًا قال: "ما

---

(١) زوج أختك.

أحسن هذا الكلام وأكرمه!" فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: "يا عمر! والله إني لأرجو أن يكون الله خصَّك بدعوة نبيِّه، فإني سمعته وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأيٍّ الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب.. فالله الله يا عمر !.

فقال له عند ذلك عمر: "فدلَّني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم".

فقال له خباب: "هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه". فأخذ عمر سيفه فتوشَّحه ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خَلَل الباب فرآه متوشحًا السَّيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فَزِع، فقال: "يا رسول الله !.. هذا عمر بن الخطاب متوشحًا بالسيف".

فقال حمزة بن عبد المطلب: "نأذن له.. فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه".

فقال رسول الله ﷺ : "ائذن له!" فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه، ثم جبذَه جبذةً[1] شديدةً وقال: "ما جاء بك يا ابن الخطاب؟.. فو الله ما أدري أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة!".

---

(١) دفعه دفعة.

فقال عمر: "يا رسول الله !.. جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله".

قال: "فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف بها أهل البيت من أصحابه أنَّ عمر قد أسلم"، فتفرَّق أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزُّوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسولَ الله وينتصفون بهما من عدوهم...".

هذه قصة إسلام عمر بن الخطاب، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والاغراء.. خرج بالسيف ليقتل محمدًا ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف، وقرأ صدرًا من سورة طه ليس فيه ذكر للخمر والنعيم وهو: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾.

فلا جُبنَ إذًا ولا طمع في إسلام عمر بن الخطاب، بل رحمة وإنابة واعتذار..

ولم يكن في إسلام الفقراء الذين هم أقلُّ من عمر ناصرًا وأضعف منه بأسًا جبن ولا طمع؛ لأنهم تعرَّضوا بإسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال إن الذين سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذَّات الجنة وجُبنٍ عن مواجهة القوة.. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور، فمن كان أقرب على هذه الطِّلبة من غنيٍّ

أو فقير ومن سيد أو مستعبَد فقد أسلم، ومن كان به زَيْغٌ عنها فقد أبى.. وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف. وما يقسِّم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف، ويضع الطغاة من قريش في جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش، في الإصرار والإنكار.

إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث، وقام بها داع تهيَّأ لها بعناية ربِّه وموافقة أحواله وصفاته..

فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل أو إلى علَّة عوجاء يلتوي بها ذوو الأهواء، فهي أوضح شيء فهمًا لمن أحبَّ أن يفهم، وهى أقوم شيء سبيلًا لمن استقام.

* * *

obeikandl.com